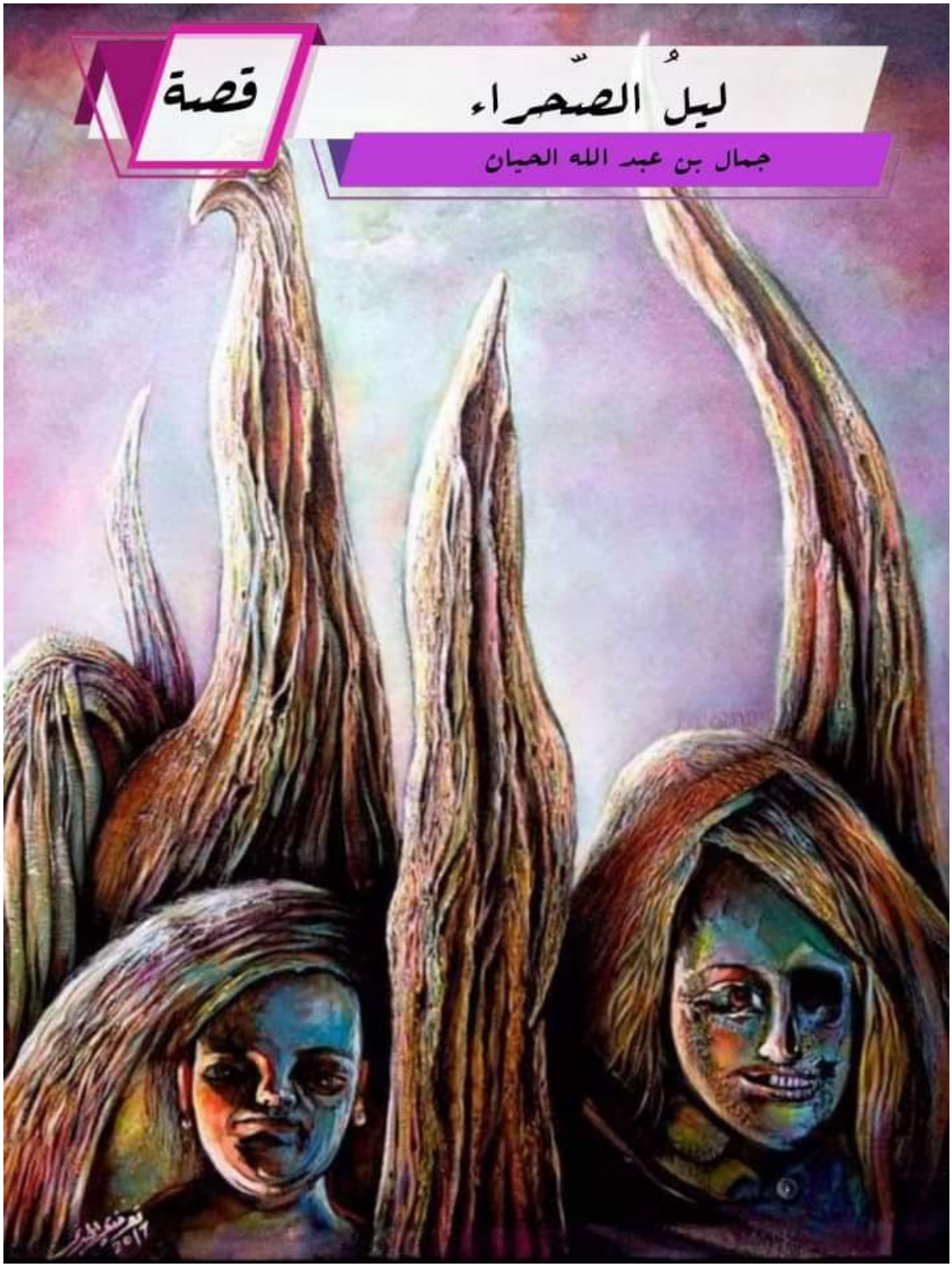
قصة
ليلُ الصّحراء
جمال بن عبد الله الحيان

رقم الإيداع الدولي :

Isbn 343_545_56_0002

تحقيق ومراجعة :

الشرطي الخلّ والصديق

تقديم الكاتب :

لا يهمني أن أقضي وقتا بانتظارك مادمت أعرف أنك ستعود ، ولكنك بلا ريب تظن أني مجنون ، فقد اعتدلت في مشيتي على المقعد الوتير دون أن أخرج من الظّل الذي غمروجهي ، وفي هذا الصدد -على الأقل- كانت هزيمة على طول الخط .

أتخيل البحر خلف الأفق الذي ازداد حلكة ، فصرت أصغي ولا أجادل و أنتظر . أنظر من النافذة لأرى مساء قائظا مغبرا عنو انه الشمس والتراب ، ثم كان ولا بدّلي -بطبيعة الحال- أن أشمئزعلى نظام العالم أمام السماء التي اعتصمت بالصمت و اكتفت بشعاعها المنبعث على الأرض ، فلولاها لظللت في حزني الشديد .

بقي لدي هذا الكبرياء الكريه ، ولكني سأسكب كل ما في روحي ، فلربما كففتُ عن التذمر...

تنقصني بعض النعومة النبيلة ، فهذا الوجه الممصوص المستهلك لا يساوي شيئا . أصبحت أرى الجميع و أنا بينهم غريب ، يسيرون ويعيشون بجانب الأنين ، ولا غرو ، فمن الطبيعي أن يحدث ذلك ، وكلهم آذان صاغية وحواس متيقظة ، فوقع سنابك الخيل على بلاط الطريق يعقبه صمت يائس ثقيل ، فوسط القيظ والسكون أوجد أنا ...

قد أكون تافها مغرورا ...

ولكنّي لست جبانا ...

****

نبحث عبثا عن نسمة رطبة لا وجود لها ، والغباروالقيظ المحرق ليلا صار موتا يدرك الألوان والحركات ، وطيور جثمت متهالكة على عشها في ثقوب الجدل ، وطنين الذباب يسمع حوالينا باحثا عن منبع ضوء .

انطلقنا من مأساة قديمة من غبارودخان ، ونحن نغطّ في نوم تعطّشنا إليه كثيرا ، والوقت ينطلق بسرعة مثل نملة مسرعة فوق أخدود من الرمل .

كانت نظرات قاسم أكثربلاغة من كلماته ، وبقي الحال هكذا إلى أن ارتفع الفجرفوق حافة الجبل ، شاعرا باليأس فوق حصيرة القش ومرتديا ثيابا سوداء .

عشتُ في تمرد وقمع ، وبلاء ومجاعة على ذلك الخط البعيد حيث تلتقي السماء بسهل جاف وسخ ، ومع أنّ حدودها مرسومة بفساحة ووضوح ، فأمامي معاناة آتية من وراء الوادي .

تخيلت نفسي أكثرجفافا وكآبة و أنا هابط بين الوديان الضيقة شديدة الانحدار، وعلى كتفي كلب قاسم الميت الذي عاملني كل هذه المدة كإنسان ، وقفت عند قبره أنتظر الإذن لدفنه والحرس ينظرون إلى ما أظهرته أضواء الليل من ملامح . لقد كشف الموت عن أسنان و أنياب طويلة ، وكأن وجهه مخضرتعلوه ابتسامة شرسة ، مطلية بالموت ، ووجوهنا الضبابية خاشعة الحال.

لقد كان قاسم نصف عارٍ، راشحا بالعرق ، ينظر إلى الأفق الصافي ، وقد خبا صوت المحيط بعيدا . ركعنا حول القبرالمفتوح ، وأزحنا التراب من على حو افه ، ننتظر معجزة توقظ الكلب من سباته كي ينصت لحكايانا كما كان يفعل من قبل ، في غمرة ليل الصحراء وسهول القمح والجبال ذات الدخان .

قسّمنا الوقت بيننا لفترات صامتة . حشدنا ببساطة ماضينا القديم . وحيدين نجلس ونتذكر ، تاركين أرزا وسمكا جاهزا بانتظاردفن الكلب .

كرعت كأسا كاملا من المسكل وبلا أي كلمة تتبعت الشهب وسرحت بخاطري مع هدوء الليل . تر اقصت سلسلة الكلب المعلقة بتقلقل فوق رأسي على شجرة زيتون يابسة . لقد شحبت وجوه الأصدقاء بهذا الصقع ، فبآندهاش تام مطّ قاسم شفته السفلى ليأخذ نفسا من الهواء قبل أن يرحل بعيدا .

_ امنحوني لحظة واحدة وسأو افيكم لقرب الوادي .

أعاد علينا من بعيد كلماته المكبوتة ، والنسوة في الراحلة يصدرون أصو اتا كسقسقة العصافير، ملتفات بدثارهنّ :

_ هلاّ أسرعتم ، ثمة قطاع طرق في كل مكان ، من فضلكم تحركوا ...!؟

ونحن على الطريق الطويلة ، لمحنا من بعيد ما بدا أنّه شعلة نيران ، كنجم كبيريلمع طوال الليل ، وضوء النجوم يمرباهتا عبرأشجار الواحة المتشابكة .

أتروّى وأمعن التفكيركثيرا أمام هذه اليوميات وقلبي يفيض الآن يأسا وخذلانا ...

تحركت القافلة باتجاه الوادي وفجأة بدأنا نبصرسهلا نُقّط بالخيام التي يتصاعد منها الدخان ، والتي انتثرت مثل ضربة فرشاة ، شاقّين طريقنا بصعوبة في الأرض القاسية .

وعلى مشارف دخولنا مجال الغرباء ، ظهرلنا رجل بأسنان لمّاعة إلى درجة أن برقت عيناه اخضرارا ، وفي العلو البعيد تذوب أصوات البوم المخيف ، فالمسافرغريب دائما ، فكل شيء ضده ، و حتى الأفاعي والعقارب لا تلسع سوى الغرباء .

نمشي بحذر...ننظرنحو الأرض ... نرى الجمال العاقر، وننتظربصبروتيقظ كيف سيكون استقبال الغرباء ، وقد خمدت الريح وواصل الحرسعيره ، و أنا أقضم تفاحة بين الحين والآخر، متأرجحا في نسيم الصحراء الجاف الرقيق .

دخلت بين تلك الأكواخ ونفسي غيرمرتاحة أبدا ، دخلت وكلّي حذر، والحرس بأفواههم الفاغرة وألسنتهم البارزة علامات لا تبشّر بخير.

تصاعدت الرياح متلاعبة ببعض الأشجارعلى مرتفع على الجانب الأيسرللخيام ، وفوقنا وحوش من الهجينين المروضين ، وطيور البوم رابضة مثل تاج حرب فوق مداخن الأكواخ الخامدة ... ولسوف نحييها ليلة ليلاء ...!!(قال زعيم القبيلة).

وجّهت الرحال لفوق التل وقد أحكمت ربط الإبل و أنزلت من على ظهورها كل الحمولة كعادتي دائما . لقد كان هناك سديم كثيف رماديّ يغلّف الرجال والنساء وقد أشعلوا نارا ضخمة للتو ، كأنه طقس من طقوسهم .

تبع قاسم زعيم القبيلة بكل ما قدرعلى حشده من سموّ، وأخذ يمسد حاجبيه بأصبعيه وهو ينظرلتلك الكتبان .

قال الزعيم : إن هذه الصحراء الميتة كما يبدو...إن ثمة أملا موجودا ، فلا تغرّنك هياكل النباتات الملتوية العطشى التي تجاهد لتحفظ الماء ، فإنها لم تمت بعد .

تابع قاسم الإنصات والتأمل ، وقد خطا الزعيم نحو الأمام قليلا حتى توارى عن الأنظار، كانت النظرات كلماته ، وارتمى صمت بحر الصحراء عن قِدم الكثبان من وراء الوادي .

كانت الراحلة تحوي عديدا من النساء الجميلات والحليّ القيمة ، مما كان يجعلها مهددة دائما للسطو والاستيلاء ... قلبي الآن يملؤه الخوف والرعب .

بإيماءة واحدة وكما كان متوقعا من هؤلاء الهمج ، أجهز محاربان على قاسم وثبتاه على الأرض ، وقد تفتحت عيناه الكبيرتان عل وسعهما من الدهش .

تذكر قاسم آخر قبلة سرقها من زوجته بالراحلة حين أزكمته رائحة إبطي الحارسين المخضلّة ، حدق بالوهج الأليف وتنبه إلى أن ترحيب زعيم القبيلة لم يكن سوى مصيدة

للاستيلاء على الرحال المخبأة خلف شجيرات الصيف القاسية وفوق تلة طمرت بأشجار النخيل الميتة التي تركت هذا المنظر الطبيعي عاريا تحت نيران الشمس والعدو.

أيقن قاسم وقتذاك أن الذكرى ورؤية المستقبل ، ستنتهي عما قريب ، وتجلت روح الإخلاص كاشفة عن نفسها .

حاول قاسم المقاومة إلا أنه سرعان ما أجهز عليه الزعيم بضربة في رأسه ، فبدأ يبصر دنيا الظلال ، وحرارة جسده بدأت في الانخفاض ، فصار لون وجهه شاحبا ، كصفحات كتاب اختفت كلماته بطول الزمان ، غير أن الثيمات التي ارتسمت على وجه الزعيم ، كانت أكثر نعومة ورخاوة .

أشرف الهزيع الأخير من الليل وقد ظهرت حتمية الانتصار وتجلت حتمية الصراع ، ولم يكن بوسعي فعل شيء سوى الانتظار.

اتجها بجثته نحو الخيام ليكملوا مراسم الاستيلاء على القافلة ، والكل حذر ومترقب ، ولبثنا نحن مجرد هياكل ترصد الخطر من بعيد ، فلقد أصبحت هذه الليلة ليلة معتكرة عسيرة ، قاسينا فيها من الذكريات و الشكاوى المريرة ، وأمواج ثائرة الطموح في البحر الفارغ كانت تناديني...

وفي الحقيقة لم يكن أمامي سوى طريق الهروب ، سأحارب بالعقل ولن ألعب دورا بائسا لا يناسبني أبدا ، فقد أحسست بقوة تدب في نفسي ثانية ، و استطعت أن آخذ شعلة من النار كانت جانب أحد الأكواخ بمعزل عن الحراس ، و قمت بدسها في إحدى الخيام ، لتُنشب نارا وجدت جو الصحراء مكانا خصبا للتوهج والانتشار ...روعت المكان ...وبدأ العويل والصياح، واختلطت الأصوات . أجبرت وقتذاك على الهروب تجاه الرحال على تلة صغيرة ، و أنا في طريقي أتلصص هاربا فإذا بي أسمع صوتا رقيقا يناديني :

_ خذني معك أرجوك ...؟!

هـو ذلـك الصـوت الـذي أبغضـه وأمقتـه ، فلقـد جعـل مني ذلـك الرجـل الضـعيف الـواهن ، حيث كان دائما يثير ثائرة نفسي ويروعها .

لقـد نالـت مني سـياط قاسـم وشـتائم زوجتـه ، ولـن أنسـى كـل ذلـك الإذلال ، ورغـم حسـنها وجمالها ومكانتها إلا أن الأقدار تأتيك بما لا يجول في الحسبان ...

توقفـت الحسـناء وهـي تلهـث وترجـوني وتتوسـل ، فصـرت أفكـر فـيم عقـول هـؤلاء كليلـة ، مخنوقـة حتى هـذه الدرجـة . ثـلاث سـنوات و أنـا عبـد لسـياط الغي والعـذاب ، مـأمور مقهـور بعـد أن كنت حرا نبيلا ذات يوم ...

كنت المكلف بكل أعمال الشقاء ...

كنت المعول عليه في كل الصعاب ...

عبد مستعبد ...

ذلك العبد الذي كانت لا تراه الحسناء سوى بعين الازدراء ...

ما الذي يحملني على إنقاذها الآن ...؟!

وفي نفـس اللحظـة أخـاف أن أكـون قـد أهملـت حقهـا هنـاك ، فانطلقـت بهـا مسـرعا نحـو أحـد الجيـاد و نشـوة السـعادة تعتريني بعـد مـرارة ظلـم وقسـوة حرمـان ، فلقـد ظفـرت وأخيـرا بالجميلـة القاسـية ، و أنـا أتأملهـا في الطريـق ، أتأمـل هـذه المخلوقـة العارمـة بالاشـتهاء في شسـاعة الصحراء .

ونحـن في الطريـق وبإحـدى الأسـواق البعيـدة جـدا بعـد مسـيرة ثلاثـة أيـام ، التقيـت أحـد الصحب القـدامى مـن تلـك الحيـاة الرغيـدة السـابقة ، تفاجـأ لحـالي وبـدأ فضـوله في السـؤال ، ولـم تكـن لـدي حيلـة مـن الـتملّص فبـدأت بسـرد كـل شـيء ، كيـف أسـرني أحـد قطـاع الطـرق وكيـف استعبدني قاسم وزوجته التي بجواري الآن ...والتي أذعنت لإرادتي في التو واللحظة .

استعدت هيئتي البشرية على أية حال ، حرا طليقا ، ولقد أزفت الساعة لأقول وداعا للعبودية ، واستعددت للإبحار تجاه وطني في بلاد السودان ، فلقد كان الأمر سريعا كأنه حلم ...

نسيت ...!؟

أظنّ أن لدي زوجة و ابنا ... على حد علمي اسمه محمود ، اما زوجتي فاسمها ...هـ..هـ..ا..هـ ...زينب ...يا لسعادتي ...

لي أسرة تنتظرني ...!!

التفت لزوجة قاسم وهي متلفعة بإحدى جنبات المركب ، و أنا أتذكر كم عاملوني بفظاظة وعنف ، وعلى الرغم من توالي الأحداث الكثيرة في هذه المدة إلا أني أتذكرها جيدا .

وصلنا بعد شهر من الابحار وعلى مقربة من المرفإ زف خبررجوعي لدى معارفي و أقربائي ولم تكن سوى أيام قليلة حتى أتى أشراف قبيلتي يحيّون ابن زعيمهم وقائدهم ، والأب الحنون لم يتمالك نفسه من شدة الفرح ، والزوجة والإبن لم يقدرا على مقاومة الشوق فارتميا عليّ يقبلاني بكل حنو وحنين ...

صحت وسط السوق بحضور جمع القبيلة والأشراف :

من يشتري هذه الحسناء بدينار ...؟!

وأرقت في أذنيها هذه الكلمات " يا لسخرية القدر".

انتهى .